حينما تنقلب أمامك الدنيا

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 3 أكتوبر 2021

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

قال لي صديق من إحدى الدول العربية يحكي حكايته مع الدنيا..

كنتُ أعمل في مؤسسة خاصة، وكان مسؤولي إنسانًا حقودًا، يكره نفسه، فتحولت كل تلك الكراهية لنا نحن الموظفين الذين نعمل معه، وكان قاسيًا إلى درجة الديكتاتورية، وكان لا يطيق أي أحد في الإدارة التي نعمل فيها، وكأن المؤسسة ملكه، ولم نكن نعرف سبب كل تلك الكراهية التي كانت موجودة ومتجذرة في قلبه، تصور إنه لم نره قط يبتسم، باختصار فقد كان ظالمًا بكل المعايير ليس عليّ أنا فقط وإنما على كل العاملين.

لم أطق هذا الوضع، فما كان مني إلا أن حاولت أن أبحث عن عمل آخر، هنا وهناك، فقمت بإرسال سيرتي الذاتية إلى عدة مؤسسات أخرى، وطبعًا كل هذا من غير علمه، ولكنه للأسف علم بتحركاتي، فما كان منه إلا أن استدعاني في مكتبه وصرخ عليّ وسخر مني ورماني بأقبح الألفاظ وأبشعها، وقبل أن يرسلني إلى خارج غرفته قال كلمة لن أنساها قط "من أنت حتى تتحداني، سوف تعود وتركع تحت قدمي حتى أعيدك إلى هذه الوظيفة، حينها لن أرحمك".

خرجتُ من الغرفة وقد أظلمت الدنيا في وجهي، فأي حقد يحمل هذا الرجل، وأي كراهية، حينها قررت أنه حتى وإن لم أجد عملاً في أي مؤسسة فإن استقالتي حتمية.

ولكن لطف اللّه سبق، فقد وافقت إحدى المؤسسات الصغيرة والحديثة على توظيفي بوظيفة رئيس قسم التسويق، فهرعت إليها جريًا وتمت المقابلة مع صاحب المؤسسة وتم توظيفي بأسرع ما يمكن، وأنا أحمد ربي على هذه المنحة.

فعملت بجهد، وكنا حوالي 5 أشخاص بالإضافة إلى صاحب المؤسسة، وبفضل اللّه سبحانه كبرت المؤسسة خلال فترة قصيرة لا تتعدى 3 سنوات، وزاد عدد الموظفين، واحتجنا إلى مشرف للمخازن، فكلفني صاحب المؤسسة أن أعلن عن الوظيفة في الجرائد وأن أقوم بجمع السير الذاتية للمتقدمين وأن أقوم بالاختبارات اللازمة والمقابلات وما إلى ذلك، وفرز كل المتقدمين لاختيار أفضل الأشخاص لهذه المهمة.

وبالفعل تقدم للوظيفة حوالي 54 شخصًا، وقامت السكرتيرة بتحديد مواعيد الاختبارات التي لم أحضرها لأنه ليس من المفروض أن أحضرها وإنما كلفت بها السكرتيرة وعددًا من الموظفين، ثم قاموا بتقييم تلك الاختبارات ووضعت النتائج في ملفات خاصة، حيث كان لكل متقدم للوظيفة ملف خاص، فقامت السكرتيرة بفرز المجموع النهائي فبلغ عدد الناجحين حوالي 23 شخصًا، وتم تحديد موعد المقابلة لكل فرد، فكان المطلوب مني – أنا – أن أقوم بمقابلة الأفراد، فردًا فردًا.

مر حوالي أسبوع وأنا أقوم بمقابلة الأفراد، ولم ينته العدد بعد، وذات يوم قدمت لي السكرتيرة ملف أحد الأفراد المتقدمين، وعندما فتحت الملف لأتعرف على هذا المتقدم، فوجئت وإذ به نفس مسؤولي السابق الظالم، فسقط الملف من يدي، توقف قلبي، فاض العرق من جسمي كله، والسكرتيرة واقفة وتقول: هل أدعه يدخل ؟

قلت: لا، دعيني قليلا، أخرج لو سمحت.

فخرجت، وأنا في ذهول، ولا أعرف ماذا أقول وكيف أتصرف، ومرت حوالي نصف ساعة وأنا أتحدث مع نفسي، وتدعوني النفس الأمارة بالانتقام، والتشفي، وفي نفس الوقت أتذكر نفسي وأنا في ذلك الموقف الذي كان يصرخ عليّ وأنه لا مفر منه هو، فهو المتحكم في قدري.

مرت حياتي معه أمام عينيّ كشريط سينمائي صدئ، صورة تحاول أن تزيح صورة حتى تبدو واضحة أمامي، ولكن لا صورة تظهر ولا صورة تتضح، فكل شيء ضبابي مبهم، ونفسي تسأل نفسي "كيف حدث ذلك؟ كيف انقلبت الدنيا ؟".

بعد حوالي نصف ساعة، اتصلت بالسكرتيرة أن تُدخل الرجل، فدخل وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى بذل وهوان وهو لا يعرف من الموجود في المكتب الذي سوف يقوم بمقابلته وبالموافقة على توظيفه، ولكنه عندما وقع نظره عليّ ذهل، وجمدت رجلاه، فوقف جامدًا متجمدًا، فلا يعرف هل يتقدم أو يخرج من الغرفة.

فقمت واقفًا، فتقدمت منه ومددت يدي له لمصافحته، ثم قدمت له الكرسي للجلوس، وهو مذهول وينظر لي من طرف خفي من عينيه، وهو لا يعرف ماذا يقول.

وعندما جلس طلبتُ له كأسًا من الماء وكوبًا من القهوة التي يفضلها، وهو حتى الآن لم يتكلم.

وعندما وضعت القهوة والماء أمامه، خرت عيناه من الدموع، بدأت بقطرات قليلة، ثم انهمرت الدموع، وبدأت كلمات الاعتذار تخرج من فيه خجلة في البداية إلا أنها بدأت تتداخل فيها حتى إن الكلمات بعد لحظات عجزت عن الخروج من فيه، بسبب كبر حجمها وتدفقها، فكل كلمة تريد أن تسبق أختها، وكل ذلك تعقبها كلمات اعتذار ومحاولة لترقيع ما حدث منذ سنوات، وأما أنا فقد كنتُ جالسًا مذهولاً، كيف تحول رجل الصنم المصنوع من الإسمنت والفولاذ، ذلك الرجل الذي لا يحس بشيء، إلى إنسان آخر، يا سبحان اللّه.

ثم قام ووقف وهرع يحاول أن يقبل رأسي ويديّ، وكذلك رجليّ إلا أني رفضت كل ذلك، فقد هوى الصنم ورجل الصنم، وأنا لا أعرف السبب، كل ذلك من أجل أن يحظى بالوظيفة.

انتهت المقابلة بعد حوالي ساعة كاملة من تدفق كلمات الاعتذار والوضع المحرج، وإن كانت لم تبدأ المقابلة، لأنها جلها كان الرجل يعتذر فيها، ويرجوني أن أوظفه لأنه محتاج، فخرج وهو يلهث من البكاء.

فجلستُ أفكر في تقلبات الدنيا، وكيف تحول هذا الرجل من تلك الصورة القديمة إلى هذه الصورة الحديثة.

وعندما انتهى صاحبي من حكايته تذكرت قصة سيدنا يوسف عليه السلام وحكايته مع أخوته، دعونا نتذكر بعضها، فقد تآمر الأخوة عليه ليبعدوه عن والديه، ثم بيع كعبد، وتعرض لمؤامرة من النسوة، ودخل السجن على أثر تلك المؤامرة مدة 7 سنوات، وبعد ذلك انفرجت الدنيا، وأصبح وزيرًا للمالية في مصر في عهد أحد الفراعنة آنذاك.

تربع على كرسي الوزارة، إلا أنه لم ينس نفسه ولم يتكبر على الناس، وعاش بينهم ومنهم، على الرغم من أنه امتلك آنذاك ملك الدنيا، فإنه من الواضح من سياق الآيات أنه كان متواضعًا محبًا للناس، فلم ينس أنه كان محتاجًا وتعرض للظلم في يوم من الأيام.

وتدور الدنيا على أخوته الظلمة، فيأتون إليه يطلبون الغذاء والزاد منه، فيعرفهم إلا أنهم ما زالوا في الظلام الذي كانوا يعيشونه، فكان لا بد من إيقاظهم من كل هذا النوم ويجب إخراجهم من ذلك الظلام.

وتدور الأحداث، بصورة أو بأخرى، حتى يأتون في النهاية يتسولون منه الغذاء، فيصف القرآن الكريم تلك اللحظة بجميل التعبير القرآني الفريد، فيقول تعالى في سورة يوسف – الآية 88 (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ).

تصور هذا الموقف، أخوة يوسف لم يمنعهم أي شيء من أجل التخلص من سيدنا يوسف عليه السلام، فمارسوا كل الحيل وكل المؤامرات في سبيل إرضاء غرورهم، حينئذ تصوروا أنهم ملكوا الدنيا وملكوا رضا والدهم، واعتقدوا أن الحقيقة قد اختفت وطويت مع صفحات التاريخ التي طويت، إلا أنهم جهلوا أن الحقيقة لا تختفي ولا تنتهي، وإنما تبقى مسطرة على صفحات التاريخ مهما طال الزمن.

وهاهم الآن بعد مرور حوالي 20 سنة، ربما تزيد أو تنقص، ولكن الآن هم واقفون أمام الحقيقة يتسولون قوتهم وقوت عيالهم وأهلهم.

عند هذه النقطة تذكرت حديث رسولنا الكريم صلى اللّه عليه وسلم الذي يوصي فيها معاذ بن جبل عندما بعثه لأهل اليمن، فقال له: "اتَّقِ دعوةَ المظلوم؛ فإنها ليس بينها وبين اللّه حجاب"، متفق عليه.

فالمظلوم عندما ينقل ملف قضيته من الأرض إلى السماء، فإن القضية قد تغيرت، فلا يحكم فيها قاضي الأرض الذي قد يكون صديق الظالم، وإنما سيحكم فيها قاضي الكون، سواء في حينه أو بعد حين، إلا أنه لا بد وأن يأخذ فيها صاحب الحق حقه مهما طال الزمن أو قصر، حتى وإن كان الظالم لا يؤمن باللّه، إلا أن اللّه موجود وحكمه نافذ شاء الظالم ذلك أم أبى.

واليوم عندما نلتفت هنا وهناك، نرى كم يظلم الإنسان أخاه الإنسان، فالتاجر يظلم المستهلك، والمسؤول يظلم الموظفين، ورب العمل يظلم العاملين، والعامل أيضًا يظلم رب عمله فيسرقه ويحاول أن يهينه،

والرجل يظلم زوجته، والأبناء يظلمون الآباء، وهكذا تدور الحلقات، فلا توجد حلقة بريئة وحلقة ظالمة، فالكل ظالم والكل ليس برئ.

لذلك يجب أن يحذر كل من يتولى أمر الناس، حتى لا يقع في المحظور، ويرفع المظلوم يديه إلى السماء ويقول "يا رب، لقد ظلمني فلان.."، ويكون هذا الفلان أنت وأنت لا تدري، فهل تعتقد أن جهلك بالأمر يعفيك عن المسؤولية ؟

لذلك راجع نفسك، ولا تأمن تقلبات الدنيا، فأنت اليوم في القمة وغداً لا تعرف أين ستكون.